الفصل السادس

الإنسـان

- الإنسان في القرآن
- في الملأ الأعلى
- من الملأ الأعلى إلى مقر الخلافة
- في مقر الخلافة
- آثار الخلافة
- مهام الخلافة ومعناها
- آثار التصحيح القرآني لحقيقة الإنسان

obeikandl.com

obeikandl.com

الإنسان في القرآن

المنهج القرآني ثورة كبرى في فهم ماهية الإنسان ، وتفسير حقيقة خلقه ووجوده ووضعه في الوجود ، وإعادةُ صياغة شاملة له ، حتى ليمكننا القول : إن الإنسان بوصفه وصفاته في المنظومة القرآنية هو إنسان لم تعرفه البشرية من قبل ، وهو إنسان غير الإنسان الذي توهمته أذهان البشر قبل القرآن ، وتتوهمه أذهان غير أهله بعده ، الإنسان في المنهج القرآني كائن لم يكن موجودًا من قبل .

قد يقال : الإنسان هو الإنسان ، فهل وضع تفسير جديد للإنسان يجعله كائنًا غير الذي كان وغير الذي يكون؟

ونقول : نعم بكل يقين ، فإن الإنسان ، معناه وقيمته ليس إلا فهمنا لحقيقته وتقديرنا لها .

وقد يقال : كيف يقال إن المنهج القرآني أتى بفهم أعاد به بيان وضع الإنسان في الوجود وفسره تفسيرًا غير مسبوق ، والإسلام رسالة خاتمة لسلسلة متصلة الحلقات من الرسالات ، وهل الإنسان الذي جاء به المنهج القرآني هو غير ذلك الذي أتى في رسالات الأنبياء قبله؟

ونقول : نعم ، ومرتين .

مرة لأن ما جاءت به الرسالات قبل القرآن عن الإنسان لم يستقر في عقل البشرية ووعيها ولم تحفظه ، وإنما سقط تحت سنابك التحريف وضلالات البشر .

ومرة أخرى لأن الإنسان لم يأت تفسيره الشامل ولا معناه الكامل ، ولا مكانه من الله عز وجل ومن الكون والخلائق ومن الوجود كله إلا في القرآن ، لأن مناهج الرسالات قبله كانت مناهج جزئية ما جاءت لتنظيم الإنسان

كل الإنسان ، ولا لتحتوي البشرية كل البشرية ، وإنما جاءت رسالات محدودة لأقوام مخصوصة وتقويمًا لأوضاع جزئية ، فالرسالات كلها اتفقت في شيء واحد ، هو توحيد الله عز وجل والدعوة لعبادته وحده لا شريك له .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)

وبعد هذا الاتفاق العام فكل رسالة تعالج جانبًا من جوانب القصور والفساد البشري ، فرسالة لعلاج فساد اقتصادي .

﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۖ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥).

ورسالة لعلاج فساد أخلاقي واجتماعي .

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾ (الأعراف:٨٠،٨١).

ورسالة لعلاج فساد سياسي .

﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾

(الشعراء:١٠،١١)

أما التفسير الشامل التام للوجود والمنظومة المتكاملة ، التي تضع أمام البشرية منهاج الرؤية المصحح لكل أفكارها المرشِّد لمسيرتها فلم يأت إلا في المنهج القرآني ، وكل الرسالات قبله إنما كانت إرهاصًا بهذا المنهج المتكامل المستوعب للبشرية ، ومبشرة به .

وهو ما نص عليه المسيح عليه السلام صريحًا في وداعه لحوارييه :

« [١٢]إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ .[١٣]وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ ، رُوحُ الْحَقِّ ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ .[١٤]ذَاكَ يُمَجِّدُنِي ، أَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ»(١)

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف:٦).

فمن هو هذا الكائن الجديد الذي جاء به القرآن فأصبح الإنسان به هو الإنسان ؟

* * *

(١) يوحنا : (١٦ : ١٢-١٤) .

obeikandl.com

فى الملأ الأعلى

الإنسان في التفسير القرآنى كائن علوي ومخلوق مشرف ، خلقه الله عز وجل بيديه .

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ (ص:٧٥).

وخلقه عز وجل خلقًا مباشرًا مستقلاً بغير مخلوق أدنى منه سبقه فخرج منه ، وإنما خلقه عز وجل على صورته وأنشأه إنشاءً كاملاً تامًّا في أبهى صورة وأحسن تقويم .

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ (التين:٤)

وجعل عز وجل في خلقه نفخة قدسية من روحه .

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص:٧١،٧٢).

والله عز وجل خلق هذا الكائن فرفع قدره وشرفه وأسجد له أشرف مخلوقاته وأقربها إليه ، وهم ملائكته الذين :

﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦).

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (البقرة:٣٤)

هذه آيات يعرفها ويقرأها كل مسلم أو يسمعها ويمر عليها مرورًا عابرًا ، فلا تستوقفه فيها غرابة ولا يرى فيها شيئًا غير مألوف ، لكن هذه الآيات البسيطة على ظاهرها هي تفسير وتعريف شامل بالإنسان قبل أن يبدأ رحلته على الأرض ، يفسر له كيف كان خلقه ، ويعرفه من أين أتى ، ويبين له وضعه ومكانه الصحيح من الخالق ومن الخلق الذي يطمئن معه وتنفك أمامه به كل ألغاز الوجود الإنساني ومعمياته .

وهي الألغاز والمتاهات التي يتوه فيها الإنسان ويضل عقله ولا يستطيع الوصول إلى حل أو تفسير لها ، لأنه لا سبيل له إليها ، وما من وسيلة يملكها تمكنه من فهمها ومعرفتها على الوجه الحق ، وهو في الوقت نفسه لا يستطيع القرار من غير فهمها ومعرفتها ، بل يظل متسائلاً سائلاً نفسه وكل شيء حوله عنها .

هذه الألغاز والمتاهات التي وقف أمامها الفكر الغربي وغير الغربي ، والفلاسفة من قديم إلى الآن ، يبحثون عن إجابة يطمئنون إليها وتفسر لهم من أين جاء الإنسان ، وكيف كان قبل أن يوجد ، وكيف جاء ووجد على الأرض ولماذا : هل جاء من الأرض ، من حيوانات أدنى ، أم هبط من السماء؟

لا يستطيع أحد الإجابة ، ومن أجاب لم يزد الأمر إلا إبهامًا وغموضًا ، ولم يزد البشرية إلا قلقًا وحيرة واضطرابًا .

كانت إجابة العقائد هي : « [٧] **وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ . فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً .** » [(١)] .

ولكنها إجابة لا تقنع عقلاً ولا ترضي نفسًا ، لأنها غير كاملة وغير مفهومة وتفتقد الأجزاء التي تجعلها داخل نسق محكم متناسق يمنحها المعنى الكامل والتفسير المنطقي الشامل ، فهى إجابة لا تخرج عن الجملة العتيدة : « إنها مشيئة الرب » .

إذًا تقول التوراة إن الله خلق آدم ، فلماذا خلقه الله عز وجل وكيف خلقه ، ولماذا أوجده على الأرض ، وإذا كان الله قد خلق الخلق كله فلماذا يكون الإنسان وحده منفردًا متميزًا عن باقي الخلائق؟

فهذه إجابة مهتزة قلقة ، لأنها خيط بلا نسيج يوثقه وتترابط خيوطه معه لتكوّن بناءً منطقيًّا مفهومًا ومقبولاً .

---

(١) تكوين : (٢ : ٧) .

وما فشلت فيه العقائد والنصوص القلقة فشلت فيه أيضًا النظريات العلمية ، وما هى بعلمية ، فلم يزدد الإنسان بها إلا شقاءً وتشتتًا على حيرة ، إذ جعلت الإنسان ، أصله ومنشأه ووجوده ، شيئًا مروعًا إن هو صدقه .

يقول دكتور جوليان هكسلي ، أحد علماء التطور البيولوجي ، مقرًّا :

«لم يعد الإنسان بعد نظرية دارون يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانًا»[1]!

الإنسان الكامل القائم في أحسن صورة ، العاقل المفكر ، الباحث عن الحقائق المتطلع للمعرفة ، المستشرف للعلا لم يعد إلا كائنًا دنيئًا قدم من كائنات أدنى فأدنى تنتهي به إلى الدواب والهوام .

نظرية التطور حين تفسر الإنسان ، وجوده وأصله ، بهذه الطريقة ليست نظرية علمية ، وإن عاد بعض التطوريين الجدد كجوليان هكسلى نفسه وأقروا واعترفوا أن الإنسان : **«منفرد في تطوره وأن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر لهي التفكير المعنوي»[2]** .

ليس يعنينا هذا الإقرار والاعتراف ولا هو عندنا بدليل ، لأن هذه النظرية وكل نظرية سواها تناقش هذه المسألة وتبحثها في استقلال عن الوحي المعصوم ليست أهلاً لأن يناقش محتواها أصلاً ، ولا هي من العلم في شيء من قبل أن ننظر فيما تقوله أو تأتي به ، إذ إنها كلها تتفق في أن من أنشأوها لم يشهدوا الخلق والنشأة الأولى ولم يعاينوها ، وليس لمن لم يعاين أن يجزم بيقين فيما لم يعاينه ، ومن جزم فيما لم يشهد ولم يعاين ليس سوى ضال مضل ، كما نبه القرآن ونص ، فكأنه يرد على هؤلاء الضالين ردًّا .

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف:٥١).

---

(١) جوليان هكسلي : الإنسان في العالم الحديث ، ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

فكيف إذًا أقام هؤلاء المضلون النظريات فيما لم يشهدوا ولم يعاينوا وليس عندهم ما يمكنهم من معرفته .

يقول جوليان هكسلي : «**إن الداروينية الصحيحة نظرية بحت تتخذ الانتخاب الطبيعي وسيلة لتفسير أي شيء وكل شيء من غير حاجة إلى أدلة ، ومن غير أن تقوم بتفسير الطريقة التي أتت بالنتائج**»[1]!!

ويقول دكتور أحمد أبو زيد : «**فالمدرسة التطورية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على التاريخ الظني أو التاريخ التخميني في إقامة نظرياتها حين كان يعوزها الدليل القاطع والشواهد اليقينية على صدق ما تذهب إليه**»[2].

خلق الإنسان وأهم مرحلة في وجوده ، مرحلة تكوينه الأولى ، وتحديد مهمته ووضع خطة مسيرته ، وبدء رحلة البشرية ونقطة انطلاق الإنسانية ، والمنهج الذي يحكم سيرها ، كل ذلك يبنى على التخمين والظن!!

فهذا من العلم أم من الدجل؟!

العلم قائم على الدليل ، ومن تمام العلم أن يقف إذا فقد الدليل ، فإذا وجده فسر وإذا لم يجده وقف ولم يتزحزح ، وليس للعلم أن يفرض أو يخمن في مسألة لا قدرة له على اختبار فرضيته وتخمينه فيها ، وليس عنده من وسائل الإدراك والمعرفة ما يمكنه من معرفة صحة فرضيته أو خطئها .

وإذا كان للغربيين عذر ، وهو عذر واه بمقياس العلم نفسه وميزان العقل نفسه ، لافتقادهم الوحي المرشد المعصوم وأزمة النصوص المكونة لليهودية والمسيحية ، فليس لمن يعيشون في ظلال القرآن عذر لا صغير ولا كبير ، وبمنطق العلم قبل منطق الإيمان، فالقرآن حضر وكان شاهدًا وهم غابوا ولم يوجدوا ، والبشرية لم تع سيرتها الأولى ولا حفظت ذاكرتها الأحداث التي

---

(١) الإنسان فى العالم الحديث ، ص ٢٧٣ .

(٢) دكتور أحمد أبوزيد : مقدمة كتاب الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين لسير جيمس فريزر ، ص ٢٥ .

سبقت وجودها ، ولا وسيلة على الأرض يستطيع بها بشر أن يعرف ما حدث قبل خلق البشر وبدء مسيرتهم ، وعند خلقهم وبدء رحلتهم .

والقرآن يؤكد في حسم أن النبي عليه الصلاة والسلام الذي جاء بالوحي المعصوم لم يشهد ولا علم له في هذه المسألة من عند نفسه ، بل هو يبلغ عمن شهد وحضر .

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (ص:٦٩).

فأي السبيلين أقرب إلى العلم ، أن نأخذ ممن شهد وحضر أم ممن غاب ولم يشهد فهو يضرب أخماسًا في أسداس ومن وقاحته يسمي أخماسه وأسداسه علمًا؟

بل وأي التفسيرين أقرب لعقل الإنسان ولنفسه ، وأيهما أكثر قدرة على تفسير الرقي والاستشراف الدائم الذي يلازم الإنسان ، التفسير القرآني لأصل الخلق أم التفسير التخميني الظني الذي أتى عليه حين من الدهر جعل شبلي شميل وسلامة موسى من لا يؤمن ، نعم من لا يؤمن!! ، جعلوا من لا يؤمن به ناقص المدنية؟!!

أرأيت إلى أين يصل بالإنسان ضلاله واغتراره؟

صار الإيمان بالتخمين من علائم المدنية ، والإيمان بالحق ممن شهد وحضر من علائم التخلف والرجعية!!

ليس لمن أراد تنحية الوحي المعصوم من هذه المسألة وأمثالها إلا أن يثبت أولا خطأه أو مناقضته لأي بديهة في العقل أو حقيقة يقينية في العلم .

ومن أراد فليرنا همته ، ولن يكون إلا :

كناطح صخرة يومًا ليوهنها . . . . فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

جاءت العقائد وأجابت ، وجاءت النظريات التخمينية وأجابت ، وفشلت هذه وتلك ، وكانت علامة فشلها الدامغة لها بقاء حيرة الإنسان واضطرابه وقلقه العميق يتساءل دومًا :

جئتُ ، لا أعلم من أينَ ، ولكنّـــي أتيـــتُ
ولقد أبصرت قُـــدّامي طريقًـــا فمشـــيتُ
وسأبقى ماشيًا إن شـــئتُ هـــذا أم أبيـــتُ
كيف جئتُ؟ كيـــف أبصـــرت طريقـــي؟
لست أدري!

أجديدٌ أم قـــديمٌ أنـــا في هـــذا الوجـــودْ
هل أنا حـــرٌّ طليـــقٌ أم أســـيرٌ في قيـــودْ
هل أنا قائدُ نفســـي في حيـــاتي أم مقـــودْ
أتمنّـــــى أنّـــــني أدري ولكـــــن . . .
لست أدري!

وطريقي ، ما طريقي؟ أطويـــلٌ أم قصـــيرْ؟
هل أنا أصـــعدُ أم أهـــبِط فيـــه وأغـــورْ
أأنا السّائر في الدّربِ أم الـــدّربُ يســـيرْ
أم كلاّنـــا واقـــفٌ والـــدّهر يجـــري؟
لست أدري !

ليت شعري وأنـــا عـــالم الغيـــب الأمـــينْ
أتُـــراني كنـــت أدري أنّـــني فيـــهِ دفـــينْ
وبـــأنّي ســـوف أبـــدو وبـــأنّي ســـأكونْ
أم تُـــــراني كنـــــت لا أدرك شـــــيئًا؟
لست أدري !

أتراني قبلمـــا أصـــبحت إنســـانًا ســـويًّا
أتُراني كنت محوًا أم تـــراني كنـــت شـــيًّا
ألهـــذا اللّغـــز حـــلٌّ أم ســـيبقى أبـــديًّا
لست أدري . . . ولمـــاذا لســـت أدري؟
لست أدري !

قيل لي في الدّير قومٌ أدركوا ســـرّ الحيـــاةْ
غير أنّي لم أجـــد غـــيرَ عقـــولٍ آســـناتْ
وقلوب بليت فيهـــا المـــنى فهـــي رفـــاتْ
ما أنـــا أعمـــى فهـــل غـــيريَ أعمـــى؟
لست أدري !

قد دخلت الدّير عنـــد الفجـــرِ كـــالفجرِ
وتركت الدّير عند اللّيل كاللّيل الغضـــوبْ
كان في نفسي كربٌ ، صار في نفسي كروبْ
أمـــن الـــدّير أم اللّيـــلِ اكتئـــابي؟
لست أدري !

قد دخلت الدّيرَ استنطقُ فيـــه الناســـكينا
فإذا القوم مـــن الحـــيرة مثلـــي باهتونـــا
غلب اليأسُ عليهم ، فهـــم مستســـلمونا
وإذا بالبـــاب مكتـــوب عليـــه . . .
لست أدري !

ولقد قلتُ لنفسي ، وأنا بين المقابرْ
هل رأيتِ الأمنَ والرّاحةَ إلاّ في الحفائرْ؟
فأشارتْ : فإذا للدّود عَيثٌ في المحاجرْ
ثم قالت : أيّها السّائل إني . . .
لست أدري !

أيّها القبرُ تكلّمْ ، واخبريني يا رِمامْ
هل طوى أحلامَك الموتُ وهل مات الغرامْ
من هو المائتُ من عامٍ ومن مليونِ عامْ
أيصيرُ الوقت في الأرماسِ محوًا؟
لست أدري !

أوراء القبر بعد الموت بعثٌ ونشورْ
فحياةٌ فخلودٌ أم فناءٌ ودثورْ
أكلام النّاس صدق أم كلام الناس زورْ
أصحيح أنّ بعض الناس يدري؟ . . .
لست أدري !

إنّني أشهد في نفسي صراعًا وعراكا
وأرى ذاتيَ شيطانًا وأحيانًا ملاكا
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا
أم تُراني واهمًا فيما أراهُ؟
لست أدري !

كلّما أيقنت أني قد أمطـت السّـتر عـني
وبلغت السّر سرّي ضحكت نفسي مـني
قد وجدت اليأس والحيرة لكـن لم أجـدني
فهـل الجهـل نعـيم أم جحـيم؟
لست أدري !

أنا لا أذكر شـيئًا مـن حيـاتي الماضـيهْ
أنا لا أعرف شـيئًا مـن حيـاتي الآتيـهْ
لِيَ ذات غـير أني لسـت أدري ماهيـه
فمـتى تعـرف ذاتي كنـهَ ذاتي؟
لست أدري ! (١)

أما لماذا ليس يدري فلأنه سأل البحر فلم يجبه،وسأل الدير فأصبح الكرب، كما يقول هو ، كروبًا ، وسأل المقابر فلم تزده إلا حيرة ، وسأل القصر والكوخ والفكر ، لكنه لم يسأل القرآن الذي نلمح إجاباته في تساؤلاته ، يبديها ويخفيها ، يعلنها ويطويها ، لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يجيب على تساؤلاته : من أين أتى ، وأين كان ، وكيف قدم ، ولماذا قدم ، وكيف بدأ وكيف سار ، وما هو ، وذاته ماهيه .

ونعود مرة أخرى ، بعد فشل العقائد المحرفة وفشل التخمين الذي يسمى علمًا ، إلى العلم الحقيقي الذي شهد وحضر ورأى وسمع ، لنعرف إجابة هذه الأسئلة التي بها تهدأ النفس ولها يطمئن العقل والفكر وبها تقر الروح المتطلعة القلقة حين يهديها المنهج القرآني إلى أصلها ويعرفها مكانها في الملأ الأعلى الذي تركته لمهمة محددة ، إذا أنجزتها عاد الإنسان بها إليه .

---

(١) ديوان إيليا أبي ماضي، ص١٩١ .

obeikandl.com

الإنسان مخلوق شريف مكرم ، خلق خلقًا مستقلاً من الله عز وجل مباشرة وفيه نفخة من روحه ، وهو من أول تصويره في أحسن تقويم ، وهو من ربه في المنزلة التي أسجد له بها ملائكته .

فكيف إذًا ترك الإنسان الملأ الأعلى ، ولماذا ؟

* * *

obeikandl.com

من الملأ الأعلى إلى مقر الخلافة

كان الإنسان في الملكوت والملأ الأعلى ، فلماذا تركه وأهبط منه إلى الأرض؟

هذه الفترة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين بداية مسيرته على الأرض هي فجوة في كل التصورات العقائدية والفلسفية غير القرآن .

ما الذي حدث للإنسان في الملأ الأعلى فأهبط إلى الأرض ، هل كان هبوطه نزولاً منه ، هل كان عقابًا له ، هل كان قدرًا محتومًا عليه من غير غاية؟

هذه الفجوة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى ووجوده على الأرض هي تاريخ الغرب كله ، وهي كل مشاكله ، وكل عقائده وفلسفاته ، وكل إيمانه ، وكل إلحاده .

وكما يخرج المولود من بطن أمه ، فإن كل تحريفات اليهودية ، وضلالات المسيحية ، والأساطير الإغريقية ، وما يسمى بالنهضة الغربية قد خرجت من رحم هذه الفجوة التي لا يعرف أحد ما حدث فيها .

لم تستطع النصوص اليهودية والمسيحية الإجابة على هذا التساؤل الذي لابد من الإجابة عليه لسد الفراغ في المنظومة والتصور ، فلفقت الإجابة تلفيقًا خلطته بما بقي من آثار الحق ، ورفدته بالتصورات الإغريقية المفتقرة إلى الوحي افتقارًا تامًّا .

والتلفيق يستدعى التلفيق ، فكان أن قام بناء متكامل من الوهم يرتكز كله على قاعدة ملفقة ، إذا عُرفت حقيقتها انهار البناء كله ، وهي ما الذي حدث لهذه الفجوة الانتقالية بين وجود الإنسان في الجنة أو في الملأ الأعلى ووجوده على الأرض .

قام البناء الملفق والمسيحية مطمئنة واثقة ، فلا أحد يعرف ما حدث حقيقة ، ولا أحد يملك من الوسائل ما يمكِّنه من معرفة الحقيقة يومًا .

وأفاق الغرب يومًا فاكتشف أن البناء من رمال لا تصمد أمام رياح المعرفة ، وكشف العلم أن الإجابة التي ملأت الفراغ في هذه الفجوة إجابة ملفقة مزيفة لم تصمد على مر القرون سوى بحجاب كثيف من الجهل والتكتم ، كان هو الإجابة التي ملأت الفجوة وكان هو نفسه الحاجز الحارس حولها .

فتمرد الغرب على هذه الإجابة ورفضها ، وتجاوز الفجوة أو افترض أن ما قبل وجود الإنسان على الأرض غير موجود لأنه لا سبيل لمعرفته وليس بين يديه وسيلة يمكن أن يستشرف بها يومًا لمعرفته ، لأن ما حدث قد حدث قبل أن توجد البشرية على الأرض وتبدأ مسيرتها فيها ، ولا يوجد فى البشرية من شاهد أو عاين ، ولا حفظت ذاكرة البشرية أحداثها الأولى .

وسار الغرب في هذا الطريق متجاهلاً ما قبل الوجود الذي لا يتم ولا يكون تفسير الوجود إلا به ، فكانت العاقبة هي العدم على الجانب الغربي والطلاسم على الجانب الشرقي .

نعود فنقول : الغرب وتاريخه كله : جهله وعلمه ، إيمانه وإلحاده ، عقائده وفلسفاته ، علومه وآدابه وفنونه ، خرج من هذه الفجوة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين وجوده على الأرض ، الغرب اليهودي المسيحي قبل اكتشاف التلفيق تكون منها ، وبعد اكتشاف التلفيق تكون بالثورة عليه والإطاحة به ، فظل التلفيق يحكمه بعد نهضته كنموذج يجب الإطاحة به وبكل ما يقاربه دائمًا ، بالضبط كما كان يحكمه قبل نهضته كنموذج ينبغي طاعته دائمًا ودون فهم .

جبل الرب الإله آدم من تراب الأرض كما تقول التوراة ونفخ فيه نسمة حياة ، ثم وضع آدم في جنة عدن ، ووضع شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر فى وسط الجنة : « [١٦] **وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً : «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ**

الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً ، ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا ، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ»(١).

كان آدم وزوجه في الجنة ثم ظهر على الأرض ليعرف امرأته وتحبل منه ، فما الذي حدث بين وجوده في الجنة وبين خروجه منها إلى الأرض؟

هذه هي الثغرة التي لم يعرف الغرب ، ولا اليهودية والمسيحية ، الإجابة عليها .

وكان لابد من الإجابة ، وإلا وصم الأحبار ومن بعدهم الكنيسة والبابوات بالجهل ، ولأنهم لا يعرفون ما حدث ولم يشهدوه كان لابد من التلفيق .

ولابد أن نعترف أنه كان تلفيقا عبقريًّا ، إذ إنه يملأ الفجوة ، وليس مهمًّا ما يملأه بها لأنه ليس لأحد قدرة على معرفة الحقيقة .

أما وجه العبقرية الفذ فأنه تلفيق بإجابة تغلق باب التساؤل أو البحث عن الإجابة الحقيقية ، فيكون التلفيق إجابة وفي الوقت نفسه حارسًا حول الإجابة وسورًا كثيفا يحيط بها ويمنع مجرد الاقتراب منها أو البحث فيها .

ما هو هذا التلفيق؟

« ٦فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ . فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ . ٧فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ»(٢).

فأصبح الاقتراب من المعرفة بذلك النص خطيئة !

وهكذا حمى الملفقون أنفسهم وسوروا التلفيق الذي وضعوه بمادته ، فلم يعد أحد يقدر على التساؤل أو البحث عن الإجابة أو مناقشتها ، فالبحث

---

(١) تكوين : (٢ : ١٦-١٧) .

(٢) تكوين : (٣ : ٦-٧)

والتساؤل معرفة ، والمعرفة خطيئة أهبطت الإنسان من الجنة إلى الأرض وهي كفيلة بالإطاحة به من الأرض إلى الهاوية ، جهنم .

أكل آدم من شجرة المعرفة فعرف الخير والشر ، فخاف الإله على سلطانه وأبديته وبقائه وخلوده أن ينازعه فيها المخلوق الذي خلقه : « [٢٢] **وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ : «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ».** [٢٣] **فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا .** [٢٤] **فَطَرَدَ الإِنْسَانَ ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»**[(١)] .

وعلى هذا التلفيق القاعدة أقيم البناء كله .

الإنسان أكل من شجرة المعرفة فخرج من الجنة ، فالمعرفة خطيئة ولا حق لأحد فيها إلا الرب أو من ينوب عنه .

والإنسان الأول الذي خرجت منه البشرية كلها ارتكب خطيئة ورثتها الإنسانية كلها دون ذنب جنته ، والمسيح جاء ليُصلب تكفيراً عن هذه الخطيئة وفداءً للبشرية التي لعنت بسببها وهي لا تدري عنها شيئًا ولا يد لها فيها .

ولأن المسيح الفادي جاء إلى الأرض فهي مركز الكون ، والعمل في الأرض وبذل الجهد فيها عقوبة على الخطيئة ، فالعقوبة على المعرفة كانت الخروج والعمل في الأرض ، فصارت المعرفة بذلك خطيئة والعمل عقوبة عليها .

وبذلك صارت الكنيسة وباباواتها هي صاحبة الحق الوحيد في المعرفة ولا حق لأحد أن يسألها أو يسائلها ، ولو فعل فإنه يعيد ارتكاب الخطيئة ، وأصبح شعار الإيمان : اعتقد ولا تفهم ، ومن يفهم يخرج على العقيدة ، وبهذا تكرس سلطان الملفقين المطلق .

---

(١) تكوين : (٣ : ٢٢-٢٤) .

ولننظر !

مجرد حشو لفراغ في تصور أو نموذج يصير رحمًا لعقيدة وسلوك وأخلاق وطريقة حياة ، ودعامة لنظريات علمية ، ودافعًا لتصور كوني .

مجرد جملة لسد فراغ فى تصور تتسبب فى تخلف عالم بأكملة وملايين ملايين البشر لمئات السنين وآلافها .

وهذا هو ما قصدناه ونقصده من أن الحضارة هي تصحيح التصور والرؤية ، والتفسير المنطقي المتناسق والمقبول في العقل والنفس ، والذي يتكون به ويخرج من رحمه السلوك والعقائد والأفكار والنظر للكون والعلم والمعرفة .

قد يقال : هذا التلفيق العبقري نسبته للزمان الذي وجد فيه كثير عليه ! فهل كانت هذه العقول في ذلك الزمان تستطيع إنشاء كل هذا البناء الوهمي الملفق وتجعله متناسقًا في أذهان الناس وتخضعهم لها به؟

ونقول : عبقرية التلفيق لم تكن في اختراع ما تم به التلفيق وسد الفجوة بين وجود الإنسان في الجنة ووجوده على الأرض ، وإنما العبقرية كانت في اختيار المادة التي أقيم بها التلفيق ومناسبتها الفجوة التي ملأت بها ، بل وفي مشابهتها للحقيقة من بعض الوجوه ، ثم إحكامها لتكون نسقًا متكاملاً ، تمكن من تحجيم البشر وصمد أمام حقائق الكون مئات السنين حتى انهار بعد التساؤل عن الإجابة الحقيقية بدافع المكتشفات العلمية .

أيضا جزء من نجاح هذا التلفيق هو موافقته لأهواء من قُدم إليهم ليسد الفراغ والفجوة في التصور ومجانسته لما فى نفوسهم .

إذًا فمن أين جاء الملفقون بمادة التلفيق الذي يسد هذا الفراغ ويملأ هذه الفجوة ويكون موافقًا لأهواء من قدموه لهم ولما في نفوسهم؟

المسيحية نشأت في أحضان الوثنيات الإغريقية والرومانية ، ونشأت بالتراكم الطويل عبر المجامع المسكونية ، وبالاحتكاك المستمر مع هذه الوثنيات .

وانتصرت المسيحية في النهاية على الوثنية إلا أنه : «**كان انتصاراً ظاهريًّا ، حيث إن الدين الجديد لم يطوع العالم اليوناني الروماني لعقيدته وروحه ، بل على العكس من ذلك نرى هذا العالم قد تشربه وطوعه لتطلعاته الأصيلة ولتقاليده في جميع المجالات الفكرية والمادية ، والكنيسة هي المسؤولة عن تلك النتيجة ، وهي التي انتصرت لا المسيحية**»[١].

الكنيسة إذًا هي إحدى جهات التلفيق التي كان يهمها أن تنتصر هي لا المسيحية ، كما تقول شهادة جينبيير أستاذ الأديان في جامعة باريس ، لذلك : «**دأبت على امتصاص لباب العقائد الوثنية وإفراغها منها طالما كانت في مصلحتها**»[٢].

وهو ما تؤكده دائرة المعارف البريطانية ، إذ تنص في مادتها عن المسيحية Christianity على أن : «**المكونات الأولى للعقيدة المسيحية وما أفرزته من أفكار وتعاليم كانت امتداداً للأفكار الإغريقية عامة ، والفلسفة الأفلوطينية خاصة**»[٣].

The early Christian definitions of dogma drew on Greek thought in general,and in some cases on Neoplatonic philosophy in particular .

وما قاله أستاذ الأديان ، وتؤكده الموسوعة البريطانية ، هو ما أقر به رأس الكنيسة الغربية ، ففي محاضرته الشهيرة عن : الدين والعقل والجامعة ، التي ألقاها في جامعة ريجنسبرج في ألمانيا يوم ١٢سبتمبر سنة ٢٠٠٦م ، والتي اتهم فيها النبي عليه الصلاة والسلام أنه لم يأت في دينه إلا بكل ما هو سيئ وغير إنساني ، قال البابا بندكت السادس عشر : «**أتصور أنه ينبغي الإشارة إلى التوافق العميق بين النظرة الإغريقية والعقيدة المسيحية في الله**»[٤]

---

(١) شارل جينبيير : المسيحية نشأتها وتطورها ، ص٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(3) The New Encpclopaedia Britannica , Vol .16, p . 272 .

(٤) النص الألماني لمحاضرة البابا وما يقابله من الترجمة العربية في : هذا هو الإسلام ، ص١١، هدية مجلة الأزهر ، ذو القعدة ١٤٢٧هـ .

ومن العجيب أنه أقر مفتخراً أن : «**لقد تكلم مانويل الثانى بحق من قلب العقيدة المسيحية المنصهر فيها جوهر الفكر الهلنيستى**»[1]**!**

ووجه العجب هو أن البابا حين أراد أن يفتخر بدينه افتخر بأن قلبه أرضي وضعي ، والأصل في أتباع كل دين ، فضلاً عن رأسه وحبره الأعظم ، أن ينسبوا دينهم للسماء خالصة ، وأن يجدوا ويجتهدوا في نفي ما قد يتهمه به مخالفوه من أصل أرضي له ، فضلاً عن أن يكون هذا الأصل الأرضي من ضالة عباد أوثان كالإغريق!!

وأما الجذر الأصلي للتلفيق ومصدره الأصلي الذي كانت الكنيسة مجرد فرع منه ، فهو الملفق الحقيقي لا هي ، الملفق الأصلي وعن عمد هو اليهود[•].

فكما يقول كرين برينتون ، مؤرخ تاريخ الفكر الغربي :

«**إن بذرة المسيحية جاءت من خارج العالم الإغريقي الروماني . . . إن أساس المسيحية يهودي بدرجة قصوى وينطبع بطابع الخبرة اليهودية الفذة**»[2].

ونعود مرة أخرى إلى الفجوة في التصور التي ملأها اليهود والكنيسة من بعدهم بهذا التلفيق العبقري الفذ الذي منحها السلطان وأخضع لها ملايين البشر وعشرات الملوك والعروش لمئات السنين مستغلة عدم قدرة أحد على معرفة حقيقة ما حدث .

---

(١) هذا هو الإسلام ، ص١٣ .

(•) لكي تعرف الملفق الحقيقي الذي كان تلفيقه عمداً وقصداً، وهو يعرف الأصل ويحوز الحق ، ولكي تعرف غايته من حجب الأصل وإخراج هذا التلفيق، يجب أن ترجع إلى كتابنا : شفرة سورة الإسراء، الذي يعالج أصول مسألة التحريف والجذر العميق لها ويتعقب آثارها في البشرية ، فإذا رجعت إليه ستعرف أن الإغريق وفلسفاتهم وأساطيرهم وحضارتهم كلها ، هي نفسها في هذا المستوى العميق ، ليست سوى أثر من آثار سريان التحريف في الأمم والشعوب ، وكتابنا هذا : الحضارة القرآنية سابق في الكتابة على كتاب : شفرة سورة الإسراء .

(٢) أفكار ورجال ، قصة الفكر الغربي ، ص١٢٧ .

القاعدة الملفقة وكل البناء الذي أقيم عليها لسد تلك الفجوة هو صورة طبق الأصل من أسطورة بروميثيوس الإغريقية .

ولنعرض الأسطورة أولاً لنرى كيف كان التلفيق عبقريًّا حين وظف كل جزئية فيها أبرع توظيف في إقامة النموذج والمنظومة كلها .

«لاحظ بروميثيوس أنه لا يوجد بين المخلوقات كلها مخلوق واحد قادر على اكتشاف قوى الطبيعة ودراستها واستخدامها ، والهيمنة على الكائنات الأخرى ، والاتصال بالآلهة عن طريق الفكر ، والإحاطة بذكائه لا بالعالم المرئي فحسب ، وإنما أيضًا بمبادئ الأشياء كلها وجوهرها ، ومن ثَم خلق الإنسان من طينة الأرض ، وأعجبت منيرفا ربة الحكمة ببديع صنعه ، فمنحته كل ما من شأنه أن يسهم في تحسين هذا الإنسان ، وقبل بروميثيوس شاكرًا ، ولكنه أردف قائلاً : إنه لكي يختار ما يلائم المخلوق الذي أبدعه لابد له أن يرى بنفسه المناطق السماوية ، فحملته منيرفا إلى السماء التي لم يرجع منها إلا بعد أن اختلس النار وخبأها في عصا مجوفة ليعطيها للإنسان ، واهتاج جوبيتر كبير الأرباب ، فأمر فولكان رب النار والمعادن أن يصنع امرأة كاملة الأوصاف ، وألبستها منيرفا ثوبًا ناصع البياض وغطت رأسها بنقاب وأكاليل من الزهر ولقنتها منيرفا الفنون التي تناسب جنسها وسلمها جوبيتر صندوقًا مقفلاً بإحكام وأمرها أن تحمله إلى بروميثيوس ، وخشي بروميثيوس أن يكون في الأمر شركًا ورفض استلام الصندوق ، لكن أخاه إبيميثيا ما إن رأى الفتاة باندورا حتى نسي ما أوصاه به أخوه فتزوجها ، وانفتح الصندوق المشؤوم وخرجت منه كل الشرور والآثام التي انتشرت من وقتها في الكون»[1].

---

(١) ب . كوملان : الأساطير الإغريقية والرومانية ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، بتصرف .

هذه هي مادة التلفيق ، رغبة بروميثيوس أن يصنع كائنًا بارعًا مفكرًا مثله صارت هي إرادة الإله الذى رغب في أن يصنع مخلوقًا يكون : «**كشبهنا وصورتنا**» كما تقول التوراة .

والتجول في المناطق السماوية هو التجول في الجنة ، وجوبيتر الروماني أو زيوس الإغريقي هو الإله ، وباندورا هي حواء ، رمز الإغواء والخطيئة ، والنار هي المعرفة ، وسرقة النار هي الأكل من الشجرة ومعرفة الخير والشر ، والعصا التي خبأ بروميثيوس النار فيها انقلبت فى التوراة إلى حية ، والحية هي نفسها عصا موسى ، وصندوق الشرور الذي انفتح على العالم هو الهبوط إلى الأرض والعيش في الدنيا والعمل فيها ، والدنيا والكون طوال قرون سيطرة الكنيسة على الغرب كانت مرادفًا للشر .

ومادة التلفيق هذه كانت شائعة إلى درجة أن : «**الناس كانوا يتسلون بأن يقصوا حتى على الأطفال الخبائث البارعة التي كان يصنعها بروميثيوس بالإله**»[1].

وليست هذه هي المادة الخام الوحيدة التي تم سد الفجوة وإقامة البناء عليها ، بل إن جزئيات هذه الأسطورة شائعة بصورة أو أخرى في كل الأساطير الإغريقية والرومانية .

وعلى سبيل المثال فإن أهم جزئية في البناء الذي قام على التلفيق لسد الفجوة بين وجود الإنسان في الجنة ووجوده على الأرض هو الخطيئة التي ورّثها الإنسان الأول للبشرية كلها ، وهي صورة طبق الأصل من القدر Destin عند الإغريق الذي هو : «**إله أعمى يجعل الكثير من البشر آثمين رغم رغبتهم في أن يكونوا صالحين**»[2].

---

(١) الأساطير الإغريقية والرومانية ، ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٥ .

والأساطير الإغريقية كلها ، وعقدة مسرحيات عباقرة المسرح الإغريقي ، سوفوكليس وإسخيلوس وأوربيديوس ، تدور حول أن : «**الإنسان ألعوبة في يد قوة خارجية لا تقاوم ، وبسبب هذه العقيدة كان طوعًا لسلطة خفية ، وكان مقدرًا عليه أن يستغفر ويكفر عن ذنوب هو غير قادر على تجنبها**»[١].

والتثليث أيضًا هو اقتباس من الفلسفة الأفلوطينية ، كما أوضح ذلك دكتور محمد أبو موسى ترجمة عن ليون جوتييه ، وأثبته الشيخ محمد أبو زهرة في محاضراته عن النصرانية[٢].

وهو ما تؤكده تفصيلاً الموسوعة البريطانية في مادتها عن المسيحية ومصادرها ، فهي تنص على أن : «**التثليث وعقيدة الثلاثة في واحد Logos هي أثر من آثار الفلسفة الأفلوطينية في اللاهوت المسيحي . . . فالتنظير الأفلوطيني لكيفية صدور العالم عن الإله وتكون المادة المتغيرة من ذاته الثابتة كان هو المادة التي اقتبسها اللاهوت المسيحي لتفسير العلاقة بين الأب والابن . . . والتوفيق بين وحدانية الإله وبين أقانيمه الثلاثة في هذا اللاهوت كان مسألة عويصة تم حلها عبر التصور الأفلوطيني للوجود**»[٣] .

Christian theology took the Neoplatonic metaphysics of substance as well as its doctrine of hypostases as the departure point for interpreting the relationship of the father to the son… this question was answered through the Neoplatonic metaphysics of being .

هذا هو البناء الوهمي الذي قام على التلفيق الذي سدت به الفجوة بين وجود الإنسان في الجنة ووجوده على الأرض ، وهو التلفيق الذي خرج منه الغرب كله ، قبل النهضة وبعدها وأثناءها .

---

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص٩٣ .

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، ص٣٨-٤٠ .

(3) The New Encyclopaedia Britannica, Vol . 16, p . 282.

وقبل أن نستطرد نقف عند سؤال يسأل : إن معنى ما قلته هو أن قصة الخلق كلها أسطورة وهمية! فكيف ورواية التوراة تتفق في بعض جوانبها مع رواية القرآن ؟

ونقول : الرد على ذلك جهتين :

الأولى : هي أن الأساطير في حقيقتها بقايا من قصة الخلق الحقيقية تناولتها على مر العصور عقول البشر فحرفتها وزادت فيها ونقصت حتى استقرت على الوضع التي هى عليه .

وعلى سبيل المثال ، وفي غير قصة الخلق الأولى ، فإن طوفان نوح عليه السلام يكاد يكون شائعًا بصورة أو بأخرى في كل الثقافات الدينية والوثنية ، ولا تكاد تخلو أمة من آثار قصة الطوفان في تراثها وحكاياتها وملاحمها ، وأبرزها ملحمة جلجامش البابلية .

وأما الجهة الثانية فهي أن سد الفجوة في رواية التوراة لم يكن بحاجة إلى أكثر من تعديلات بسيطة ليطابق الأسطورة ويكرس سلطان الملفقين وهيمنتهم، وفي الوقت نفسه يرضي عقل الوثنية التي يلقى إليها التلفيق ، فمجرد تعديل هنا وجملة هناك وإضافة بعض الرتوش هنا وهناك تؤدي المقصود .

إذًا ما نريد أن نصل إليه هو أن قصة الخلق التوراتية هي قصة حقيقية في أصلها ، محرفة ومدعمة بعناصر الأسطورة في الصورة التي استقرت عليها ، سواء كان التحريف والتدعيم تلقائيًا أو كان مقصودًا ، وفي كل الأحوال فقد استغل الملفقون القصة كما استقرت في صورتها الوثنية أبرع استغلال .

ونعود لنكمل المسيرة .

البناء الملفق اهتز بشدة بسبب تصور كوبرنيكوس لكون جديد لم تعد الأرض فيه هي المركز ، ومن ثَم لم يعد المسيح الفادي مركز الكون ، ثم تأكد التصور .

واكتشف الغرب أن المعرفة لا تنفتح بها صناديق الشر بل ترقى بها الحياة وتزدهر ، فمعرفة العالم الجديد أدت إلى طفرة اقتصادية لم تعهدها أوروبا قبلها ، فأدى اكتشاف العالم الجديد إلى الخروج من قبضة الكنيسة جغرافيًّا ، وإلى الخروج من قبضة رؤيتها للمعرفة فكريًّا .

وتقلقل البناء الوهمي أكثر ولم يزل يهتز حتى انهار ، ولكن من جهة أخرى ما إن اكتشف الغرب الحشو الملفق حتى أصابته ثورة على الوهم الذي كان يسجنه فقرر أن يُعرض تمامًا عن هذا الجزء الفارغ ويتغاضى عنه ، وأن يقيم نموذجه بالتراكم معتمدًا على الشيء الذي كشف له تلفيق البناء القديم ، ألا وهو العلم .

فالنص المقدس قد صار بالنسبة له غير قادر على مسايرة العصر ولا تفسير الكون ، ولا هو أصبح يقدم تفسيرًا مقنعًا لوجود الإنسان والسبب الذي جاء من أجله إلى الأرض ، فأصبح النص سجنًا لابد من الفكاك منه .

إذًا علة الغرب والعقدة التي حكمت تاريخه كله هي هذه الفجوة بين الوجود في الجنة والوجود على الأرض التي ملأتها التوراة والبابوات بالحشو الملفق الذي يكرس سلطانهم وأقاموا الغرب عليها ، وعندما نهض نهض بالثورة عليها والإطاحة بها ، وظل مقيدًا للشيء الذي كشفها له وخلصه منها ، وهو العلم .

الغرب ، تاريخه كله ، قبل النهضة وبعدها ، تحكمه معادلة برومثيوس التوراتية التي تُصفى الأسطورة وتنتهي إليها : **الألوهية ضد المعرفة الإنسانية**

قبل النهضة وفي قبضة المسيحية الكنسية اختار الغرب الانحياز إلى طرف المعادلة الأول ، فكانت هكذا : **الإنسان مع الألوهية ضد المعرفة**

وعندما اكتشف الإنسان التلفيق بسبب التراكم العلمي انتقل من طرف المعادلة الأول إلى طرفها الثاني فصارت : **الإنسان مع المعرفة ضد الألوهية**

وكما هو بيّن ، المعادلة هي هي لم تتغير أطرافها ، وهي هي تحكم الغرب في نهضته كما كانت تحكمه في تخلفه .

الآن ماذا عن القرآن ، ماذا غير في فهم الإنسان للوجود ، وما الذي جاء به إلى الأرض ، ولماذا أهبط من الملأ الأعلى ؟

هذه هي الأسئلة التي لا توجد لها إجابة منطقية ولا تفسير مقبول لا يصطدم بالعلم والمعرفة المفطورة فى نفس الإنسان .

في القرآن كان الإنسان في الملأ الأعلى ثم أهبط منه إلى الأرض ، فماذا حدث في هذه المسافة بين الوجود في الملأ الأعلى والهبوط إلى الأرض؟

أمر الله عز وجل آدم أن يأكل من ثمار الجنة ونعيمها ، ونهاه ابتلاءً أن يقرب شجرة لم يعين القرآن اسمها ولا نوعها ولا ما تثمره ، هي شجرة فقط : **«وليس في شيء من تعيين الشجرة ما يعضده خبر»**[1].

فهي فقط شجرة لابتلاء آدم واختبار إرادته ، ونوعها غير مؤثر في بنية التفسير القرآني ، بخلاف التلفيق التوراتي الذي ينهار به بناء المسيحية الكنسية وسطوتها والعقدة الحاكمة لتاريخها وينهار تاريخ الغرب كله لو كانت هذه الشجرة أي شيء غير شجرة المعرفة .

ثم وسوس الشيطان إلى آدم .

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (طه: ١٢٠).

وإذًا لم تكن ثمة شجرة للخلد ولا للحياة خاف الإله ، كما تقول التوراة ، أن ينازعه آدم الخلود إذا أكل منها فأخرجه من الجنة ، وإنما كان ذلك من كيد الشيطان وتضليله وإغوائه لآدم ، فجعل كتبة التوراة وسوسة الشيطان حقيقة تسببت في لعن آدم وطرده .

ثم : **﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾** (طه: ١٢١).

---

(١) تفسير القرطبى ، ٣٤٨/١ .

فآدم وزوجه أكلا معًا ولم تكن امرأته هي المسؤولة وحدها عن هذه الخطيئة ، كما تقول التوراة ، بأكلها أولاً وبإغوائها لآدم ليأكل ، وهو التفسير التلفيق الذي بناءً عليه تم تحديد وضع المرأة في الفكر الغربي قبل النهضة كمخلوق من درجة دنيئة ، هو رمز للخطيئة والغواية ، وأحد الموضوعات التي كانت مدرجة للمناقشة في مجمع ماكون Macon سنة ٥٨٦م هو : هل المرأة إنسان ؟

وهذه هي أيضًا الفكرة التي حكمت وضع المرأة بعد الثورة على التلفيق ، لتكون رمزًا لهذه الثورة ، لذلك أصبحت المرأة في المجتمع الغربي ، وكلما ابتعد عن التلفيق وانفلت منه ، رمز الحرية والتحرر في كل ما يتصل بها ، ولو شئنا الدقة فقد صارت مزيجًا من الخطيئة والتحرر ، رمزًا للغواية والحرية معًا .

إذًا أكل آدم وزوجه من الشجرة معًا ، فماذا حدث ؟

هاهنا الوقفة الحاسمة بين القرآن والغرب اليهودي المسيحي الملفق .

أكل آدم من الشجرة فأخطأ ، لكنه لم ينزل إلى الأرض مباشرة بعد خطئه ، بل هناك حدث بين عصيانه لأمر ربه وخطئه وبين نزوله إلى الأرض ، وهذا الحدث ينسف التلفيق التوراتي والبناء الذي أقيم عليه من أوله لآخره ، وينهار به البنيان الغربي كله ، قبل النهضة وبعدها ، لأن النهضة كانت مسيرة يحكمها هذا التلفيق في الاتجاه المضاد .

ونلاحظ مرة أخرى ، مجرد تعديل طفيف في التصور أو جملة واحدة تؤدي إلى نسف عالم بأكمله وتكوّن عالمًا جديدًا مكانه .

ما الذى حدث ينسف رواية التوراة والعالم الذي تكون بها وعليها؟

تاب آدم!!

فقط تاب آدم قبل خروجه من الملأ الأعلى فخسف بالتلفيق وعالمه الأرض ، فهذه هي الجزئية التي تسد الفجوة بصورة معقولة ومنطقية ، مفهومة وبسيطة ، ولأنها بسيطة فهي أبعد الأشياء عن الذهن الذي يريد أن يلفق لأن التلفيق تعقيد .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(البقرة:٣٧)

تاب آدم وزوجه وأنابا إلى الله واعترفا بخطئهما وذنبهما وطلبا منه عز وجل الرحمة والمغفرة ، ففى المنهج والتفسير القرآني للإنسان لم يرتكب الإنسان الخطيئة فأهبط إلى الأرض عقابًا له ، بل هو أخطأ ثم تاب ، والله تواب رحيم .

والقرآن صريح في أن الله عز وجل قد قبل توبة آدم واجتباه مهديًا إليه :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾

(طه:١٢١،١٢٢)

والأمر بالهبوط إلى الأرض للإنسان الأول كان بعد هذه التوبة وقبولها ، وبعد أن أصبح الإنسان الأول في هداية الله عز وجل ونوره ، بل إنه من المثير للذهن أن القرآن لا يذكر الأمر لآدم عليه السلام بالهبوط إلى الأرض إلا بعد ذكر توبته وقبولها .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا ﴾ (البقرة:٣٧،٣٨).

﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ﴾

(طه:١٢٢،١٢٣)

إذًا بين وجود آدم في الملأ الأعلى وهبوطه إلى الأرض توبته واستغفاره ، وقبول الله عز وجل إياه ، وهدايته له ، واجتباؤه إليه .

فالقرآن الذي شهد وحضر يقرر أن آدم تاب ، وهو التفسير الوحيد المعقول والمقبول ، فهو المخلوق بيد الله عز وجل ، وفيه نفخة من روحه سبحانه

وأسجد له ملائكته ، فالأقرب للعقل والمنطق السليم أن يَذكر إذا ذُكِّر ، وأن يتوب إذا أخطأ .

والأقرب للعقل والمنطق أن يقبل ربه توبته وقد تاب إليه ، وهو الذي خلقه خلقًا شريفًا وكرمه بما لم يكرم به أحدًا من خلقه ، وآدم بعدُ لم يجحد ولم يتمرد ولم يعلن العصيان والتحدي كإبليس ، بل أخطأ ضعفًا وغواية ثم تاب وندم .

مرة أخرى ولا نمل من التذكير ، مجرد تعديل طفيف وإعادة تصحيح لجزئية في نموذج تهدر عالمًا بأكمله وتطيح به ، وهذه هي الحضارة التي نقصدها ، التغيير والنقلة التي تؤدى إلى آثار في كل ما يتصل بالإنسان والكون.

ونعود إلى الإنسان الأول .

خلقه الله عز وجل شريفًا عزيزًا ، وابتلاه اختبارًا بالشجرة فنسي وأخطأ ، ثم تاب وأناب وقبل الله عز وجل توبته ، فإذا لم يكن هبوطه إلى الأرض عقابًا له ونفيًا فلماذا إذًا أهبطه عز وجل إلى الأرض؟

هذا هو تمام التفسير القرآني للإنسان ، التفسير الذى تعي البشرية وتحار وتضرب في بطن الأرض بحثًا عنه ولا تستطيع أن تصل إليه ، وما هو في طاقة ما تملكه من وسائل أو تحوزه من تقنيات .

وهو التفسير الذي يضع الإنسان في المكان والمقام اللائق به وهو المخلوق الذي خلقه الله عز وجل بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته .

وهو التفسير العقلي المنطقي الوحيد الذي يفسر وجود الإنسان على الأرض دون أن يكل فيه الذهن وتتبلبل النفس ، ودون أن يتكبل الإنسان بآثام وخطايا لا يعلم عنها شيئًا وهو منها برىء .

* * *

في مقر الخلافة

حكم التصور اليهودي المسيحي الغربي الملفق للفترة بين وجود الإنسان في الجنة وخروجه منها إلى الأرض ، حكم وحتم وضع الإنسان على الأرض ، فهو الكائن المطرود المغضوب عليه ، الحامل للخطيئة ، الوارث ، المورث لها ، الذي جاء إلى الأرض ويعمل فيها عقابًا له عليها .

فماذا عن الإنسان على الأرض في البيان القرآني؟

آدم تاب وأناب ، وغفر الله عز وجل له وهداه واجتباه إليه ، فلماذا إذًا هبط إلى الأرض ولماذا ترك الملأ الأعلى؟

يقول العليم الخبير :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠)

من يقرأ هذه الآية أو يسمعها سوف يقفز إلى ذهنه على الفور أن مهمة آدم في الأرض التي أهبط من الملأ الأعلى من أجلها هي جعله خليفة فيها ، وهذا صحيح .

إلا أنه قبل هذا فإن في الآية حقيقة أخرى وتصحيح يتم به نسف النموذج التوراتي وفضح التلفيق وما قام عليه من بناء الغرب كله .

هذه الحقيقة الكامنة في الآية هي أن وجود آدم على الأرض وهبوطه إليها من الملأ الأعلى واستقراره فيها إرادة إلهية وأمر مقرر عليه قبل أن يوجد وقبل أن يخلق .

ففي هذا الحوار بين الله عز وجل وملائكته لم يكن آدم موجودًا ، ولم يكن قد خلق بعد ، ولم يكن قد أدخل الجنة ، ولا نهي عن الأكل من الشجرة المحرمة ولا هو أكل منها .

obeikandl.com

إذًا مـرة أخـرى ، هـبـوط آدم مـن المـلأ الأعلـى إلى الأرض لم يكـن عقابًـا ولا نفيًا ، فهبوط آدم واسـتقرار الإنسـان في الأرض إرادة الله عـز وجـل الـتي لم يخلق آدم إلا من أجلها ، بـل إن الله عـز وجـل لم يُعـرِّف الملائكـة بـالمخلوق الذي سوف يخلقه إلا من خلال مهمتـه الـتي سـوف يخلقـه مـن أجلـها ، وهـي الوجود في الأرض .

فآدم مكانه الأرض ومستقره الأرض وهبوطه إليهـا مقـرر مـراد قبـل خلقـه ، وهو المقصود من خلقه وليس هبوطه عقابًا ، ولا طـردًا أو نفيًـا ، ولا لعنـة لـه ولنسله ، وإذًا فهو لـيس في حاجـة إلى مخلـص يخلصـه ويفديـه لأنـه نـزل إلى الأرض وبدأ مسيرته عليها طاهرًا بريئًا مهتديًا ، مجتبى من الله عز وجل ، عابـدًا موحدًا له مؤمنًا به .

* * *

openkandl.com

آثار الخلافة

أهبط الإنسان من الملأ الأعلى إلى الأرض لأداء مهمة محددة ، لم يخلق إلا من أجلها وبعد تحديدها ، ألا وهي خلافة الله عز وجل .

فما معنى هذه الخلافة؟

الخلافة معناها ، كما يقول الإمام القرطبي ، أن الإنسان : «**خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره**»[1]

إذًا المقصود من الخلافة هو نيابة الإنسان عن الله عز وجل في الكون ، لأن : «**الخلافة هي النيابة عن الغير**»[2]

هذه هي المهمة التي خلق الإنسان من أجلها ، ومن أجلها أهبط من الملأ الأعلى ، أن يكون خليفة الله عز وجل في إمضاء أحكامه وأوامره .

هذه المهمة التي خلق الإنسان من أجلها ، وهي الخلافة عن الله عز وجل في الكون ، تضع للإنسان الإطار الذي ينبغي له أن يتحرك فيه ، والفهم الذي يجب أن يعيه لنفسه ولعلاقته بالكون وبالله عز وجل ، كما توضح له خريطة مسيرته في الحياة وتضع له العلامات الإرشادية فيها .

فالخلافة أو النيابة هي عن الله عز وجل الخالق الواحد ، المطلق القدرة ، التام العلم ، المحيط بكل شيء ، فإذًا هذا تشريف للإنسان ومرتبة له في الوجود لم ينلها مخلوق آخر غيره حتى الملائكة المقربون .

فالإنسان هو الكائن المشرف الذي خلقه خالق الوجود واختاره ، ليكون خليفة له في الأرض والكون كله .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ٣٠١/١ .

(٢) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ، ص ١٥٦ .

obeikandi.com

وجعل الله عز وجل علامة لباقي مخلوقاته على اختيار هذا المخلوق للخلافة وتكليفه بها وتشريفه على من سواه ، وهي أمره عز وجل الملائكة بالسجود له ، لا سجود العبادة ، ولكن سجود إعلان الخضوع لأمر الله عز وجل في إرادته واختياره ، وإعلان التسليم للمختار بالخلافة والتشريف والطاعة له في إمضاء أحكام الله عز وجل وأوامره .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (البقرة:٣٤)

والملائكة هم أطهر خلق الله عز وجل وأقربها له ، وهم منفذو أمره وحكمه ، فالأمر لهم بالسجود هو أمر لكل من سواهم بالسجود والطاعة ، ومن استكبر على إعلان الخضوع لأمر الله عز وجل في اختياره وتشريفه لمن شاء من خلقه ورفض السجود أصبح مطروداً من رحمة الله عز وجل ، ملعوناً إلى يوم الدين .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

(الحجر:٣٣-٣٥)

وهو لعنه الله إذ طُرد من رحمة الله عز وجل وأبلس منها وعلم مصيره ، نذر نفسه لغواية الإنسان وإضلاله ، كي يثبت خطأ الله ، عز وجل وتعالى عن ذلك ، في اختياره .

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٢)

وجعل مهمته في الوجود إخراج هذا الكائن المشرف المفضل عليه عن مهمته وتضليله عنها حتى يكونا سواءً بسواء .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧)

أول آثار الخلافة عن الله عز وجل في الكون ومقتضياتها هي إذًا أن الإنسان مخلوق مشرف مختار على الخلائق .

فإذا كان الإنسان هو خليفة الله عز وجل في الكون المشرف ، فقد ترتب على ذلك أن الله عز وجل الذي اختاره لخلافته منحه سلطانًا على الوجود ، وهيمنة عليه ، وقدرة على تسييره وإدارته ، حتى يتمكن من أداء مهام الخلافة التي خلق وشرف على الخلائق من أجلها .

وتوطيدًا لهذا السلطان من المستخلِف لمن استخلفه ، وتذليلاً لأداء مهمته ، وإعانة له عليها ، أمر عز وجل الكون كله أن يكون مسخرًا لهذا الخليفة المختار .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(إبراهيم: ٣٢، ٣٣)

إذًا فالكون والطبيعة ليست ندًّا للإنسان ولا عاصية له ، بل هي مذللة له ، أوجدت ورتبت بأمر الله عز وجل في هذه الصورة ، لتمكنه من أداء مهمته التي خلقه الله عز وجل واختاره لها ، وليس الكون شرًّا يفر منه ، ولا الطبيعة في حالة صراع دائم معه ، بل هي موجود مخلوق ليسيره الإنسان في إطار المهمة المحددة التي خلق من أجلها ، والوجود كله يدعوه لذلك بما هو مبثوث فيه ويعينه عليه .

وهذا السلطان والهيمنة التي للإنسان على الأرض والكون وكل ما يحيط به من مخلوقات ذُللت له وسخرت من أجل تحقيق الخلافة فيها ، وهي تعينه عليها ، هذه الهيمنة وهذا السلطان ممنوح من المستخلِف للخليفة لإعانته في مهمته التي خلق من أجلها ، وإذًا سلطان الإنسان على الكون والطبيعة والخلائق ليس أصيلاً فيه ، ولا هو حازه بقدراته الذاتية ، بل هو موهوب له في إطار مهمته المحددة ، ألا وهي الخلافة .

فليس للإنسان أن يستخدم هذا السلطان وهذه الهيمنة إلا في إطار مهمة الخلافة عن الله عز وجل ، وفي حدود أدائها ، وكل استخدام لهذا السلطان خارج حدود مهمته في الكون هو خروج على إرادة المستخلِف عز وجل وعقد الخلافة ، لأن هذا السلطان وهذه الهيمنة لم تمنح له إلا لأداء هذه المهمة .

وكل استخدام لهذا السلطان خارج حدود مهمة الخلافة هو افتئات وتمرد من الإنسان على الذي استخلفه عز وجل ، لأن الخليفة ليس حرًّا حرية مطلقة في التصرف في الكون والخلق ، فهو حر داخل الحدود التي وضعها له من استخلفه ، وهو حر في استخدام ما مُنح من سلطان بحيث لا يخرج عن إرادة من منحه هذا السلطان .

وكل تعد لهذه الحدود وهذا الإطار هو تعد من الإنسان لمقامه ومكانه ، مقام الخليفة ، إلى مقام ليس له ولا يملك قدراته ولا سلطانه ، مقام الإله ، ذلك أن السلطان الذي منح له سلطان جزئي محدود بحدود المهمة التي وكل بها ، فسلطان الإنسان على الكون هو سلطان الخليفة الممنوح الجزئي ، لا سلطان الإله الكامل المطلق .

ووضع هذا السلطان في غير إطار الخلافة هو إفساد للكون والخلائق ، وإيذان بخروجها عليه ، وعدم قدرته على السيطرة عليها وتسييرها بالتناسق والإحكام التي هي فيه ، لأن سلطانه غير مؤهل لهذا ، ولا هو يملك القدرات التي تمكنه منه .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١)

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾(العنكبوت:٤٠)

فالكون كله سماءً وأرضًا ، برًّا وبحرًا ، المسخر للإنسان المذلل له هو نفسه الذي يخرج عن سلطانه الممنوح له إذا وضعه في غير ما منح له بسببه ، ويصير هو عين هلاكه وتدميره .

وإذا كانت خلافة الإنسان في الأرض والكون تشريفًا وتكريمًا له ، واقتضت أن يُمنح سلطانًا يمكنه من أداء هذه المهمة على الأرض ، فإن هذه الخلافة نفسها هي تكليف للإنسان ومهمة موكولة إليه محاسب عليها ، وليس له أن يتنصل منها ولا أن يأبى حمل تبعاتها ، مثلما أنه ليس له أن يستخدم السلطان الذي منح له بها في غيرها .

فالخلافة تكليف يعني أن على الإنسان مهمة محددة ، هو مسؤول أمام من استخلفه عن أدائها وتنفيذها على الوجه الذي أراده ، وهذا التكليف هو المهمة الأولى والأصلية للإنسان على الأرض ، لأنه ما أوجد ولا أهبط إليها إلا لأدائها .

وهذه المهمة المسؤولية التي كلف بها ، لها أجل مسمى محدد عيّنه المستخلِف ، هو يوم القيامة للإنسانية كلها ، والموت لكل إنسان وحده .

بعدها تنتهي المهمة ويُستدعي الإنسان الخليفة إلى مستخلِفه ، لتنشر صحائف الأعمال وتبسط التقارير ، ويحاسب الخليفة على كيفية أدائه وإنجازه للمهمة ، هل أداها كما أراد منه الله عز وجل الذي استخلفه ، هل قصر فيها ، هل تجاهل المهمة التي خلق من أجلها وخرج عن أوامر المستخلِف؟

هل استخدم الإنسان السلطان الممنوح له فيما منح له من أجله أم أساء استخدامه وخرج به عن حدود المهمة المكلف بها والموكولة إليه ، وإذا كان قد قصر فهل تقصيره مما يغتفر لأنه من طبيعة النقص الطينية المخلوق بها ، وهذا التقصير لم يخل بإطار المهمة والتكليف ، أم أن هذا التقصير كان عبثًا خارج حدود الضعف المركب فيه يستوجب العقاب ، أم أن الأمر كان إطاحة بالمهمة كلها وتمردًا عليها وعلى المستخلِف ومناطحة له عز وجل ، التمرد الذي ليس له جزاء إلا ما يكافئه ، اللعنة والعذاب الأبدي؟

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب: ٧٢)

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ، بعد أن نقل ما وصله من أقوال الصحابة

والتابعين في معنى الأمانة : «**وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف**»[1]

فالأمانة التي يحملها الإنسان معه هي التكليف بالمهمة التي يجب إنجازها على الأرض ، والتي ما خلق إلا من أجلها وما أهبط من الملأ الأعلى إلا لأدائها ، وهي الأمانة التي ليس له أن يتنصل من أدائها لأن وجوده ما كان إلا من أجلها .

ولا يخلو الأمر من سفسطة ، فرب قائل : أنا لا أريد هذه المهمة ولا أرغب في هذا التكليف .

فنقول له : إن هذا التكليف هو سبب وجود الإنسان في الأرض ، ورفضه يعني رفض الإنسان لسبب وجوده ، فإذا كان يمكن لإنسان أن يرفض وجوده فيمكنه أن يرفض التكليف ، وهذه المهمة التي خلق الإنسان لأدائها هي ماهيته التي عرف الله عز وجل الملائكة به عن طريقها ، فرفض الإنسان المهمة هو إنكار منه لماهيته .

وهذه المهمة وهذا التكليف هو الذي منح الإنسان سلطانه على المخلوقات ، وسخر له الكون لكي يستطيع إنجازها والقيام به ، فإذا أراد رفض المهمة كان عليه أن يتنازل عن سلطانه على الخلائق ويترك التعامل مع ما سخر له من الأرض والكون ، فلا يأكل من الأرض التي سخرت لتنبت له ، ولا يشرب الماء الذى سخرت السماء والسحاب والشمس والبحار لإسقاطه له ، ولا يتنفس الهواء ، ولا . . ولا . . ولا . . ولا يكون .

فمن أراد رفض المهمة وترك التكليف عليه في الوقت نفسه ، لارتباط المهمة بمقتضياتها وما منح له لإنجازها ، عليه أن يتنازل عن سلطانه وعلمه وعقله ، وعن وجوده وماهيته ، وعليه ألا يكون .

* * *

---

(١) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦٨٩/٦ .

مهام الخلافة ومعناها

الإنسان الآن خليفة الله عز وجل على أرضه وفي كونه،وهو في مقر خلافته، وقد شرف بهذه الخلافة ومُنح من أجلها سلطانًا على الكون والخلائق ، وهذه الخلافة مهمة وتكليف يجب أداؤه والقيام به ، فما هي مهام الإنسان ، وما هو المطلوب منه ليكون خليفة ويحقق إرادة المستخلِف منه ولا يخرج عن إطار مهمة الخلافة الموكولة إليه؟

يقول عز وجل لملائكته : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠)

ويقول عز وجل مخاطبًا خلقه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر:٣٩)

فمهمة الإنسان التي خلق من أجلها وأهبط إلى الأرض للقيام بها أن يكون خليفة الله عز وجل .

ويقول عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)

فالإنسان لم يخلق إلا لعبادة الله عز وجل .

إذًا كيف يمكن حل هذا الإشكال ، هل خلق الإنسان للعبادة أم للخلافة؟

لا يمكن حل هذا الإشكال إلا بأن تكون عبادة الله عز وجل هي الخلافة في الأرض ، وخلافة الله عز وجل في الأرض هي العبادة ، والعبادة والخلافة ، معًا ، هي مهمة الإنسان التي من أجلها خلق وأهبط إلى الأرض .

إذًا فلكي نفهم معنى خلافة الإنسان لله عز وجل وطبيعة المهمة الموكولة إليه ، فلابد أن نفهمها في إطار أنها العبادة ، ولكي نفهم معنى العبادة لله عز وجل حق فهمها لابد أن نفهمها في ضوء الخلافة ، لأن القرآن يقرر أنهما شيء واحد .

ولننظر للأمر من جهتيه .

أولاً : ما معنى عبادة الله عز وجل في ضوء أنها هي خلافة الإنسان في الأرض ؟

هل المعنى أن تكون مهمة الإنسان الأولى والوحيدة على الأرض أن يصلي ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة ويسبح ويستغفر؟

هذا ما لا يمكن فهمه ، لأنه لو كان هو المقصود لما كان لوجود الإنسان على الأرض معنى ، ولما استطاع أن يعيش على الأرض أو يتم مسيرته عليها ، لأن سعيه في هذه الحالة وعلمه وعمله وبحثه عن الرزق والضرب في الأرض ، كلها تكون خارجة عن مفهوم العبادة ، ومن ثَم عن المراد من الخلافة ، فيكون الإنسان بذلك قد خرج عن إطار المهمة التي خلق للقيام بها .

إذًا فلا يمكن أن يكون معنى العبادة لله عز وجل ، في إطار أنها الخلافة في الأرض والكون ، هو الفروض والشعائر فقط .

فماذا يكون معنى العبادة في ضوء أنها الخلافة ومهمة الإنسان والغاية التي خلق من أجلها ، كما يقرر القرآن؟

لا يمكن الإجابة ، بل تصبح مستحيلة في ضوء ما قرره القرآن ، إلا بتوسيع معنى العبادة ، ليشمل كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان على الأرض ، وإلا كانت كل نشاطاته وحركته خروجًا على المهمة وتجاوزًا للتكليف .

يقول الراغب الأصفهاني : «**العبودية هي إظهار التذلل والعبادة غاية التذلل**»[1]

فالعبادة ليست هي الفروض والشعائر فقط ، وإنما هي التذلل والخضوع لله عز وجل .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص ٣١٩ .

فمعنى العبادة أن يخضع الإنسان لله عز وجل : «**فيحقق فى الكون مظهراً من الخضوع والتسليم له صادر عن إرادة حرة بعد أن تحقق الخضوع والتسليم من كافة المخلوقات بصفة قسرية**»[1]

أو بتعبير الراغب الأصفهاني : «**أن تتحقق عبادة الله بالاختيار كما تحققت بالتسخير**»[2]

فالعبادة هي فهم الوجود والحياة بخريطة الوجود الإلهية ، وصنع الحياة بها ، وتكوين القيم والأخلاق والعلاقات بهديها ، وضبط كل ما يصدر عن الإنسان بمنهج الله عز وجل وأوامره : أفكاره وسلوكه ، علمه وعمله ، نشاطه وأخلاقه .

العبادة إذًا هى الحياة الإنسانية كلها حين تسير بأمر الله عز وجل وفي نور منهجه ، لذلك فى القرآن : «**فى السياق الواحد يرد ذكر التوحيد وآثار الفاعلية والسلطان في الكون وفي الحياة الدنيا والآخرة ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله باعتباره منتهى توحيد الألوهية والسلطان**»[3].

وقد يقال : في هذه الحالة التي تكون فيها العبادة هي ضبط كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو حركة بما أراد الله عز وجل منه فيها ، ماذا تكون الفروض والشعائر؟

هي الخط الساخن بين الخليفة وبين الله عز وجل الذي استخلفه ، وبينه وبين الملأ الأعلى الذي قدم منه ، يصله به ويذكره بنفسه ، ما هو ، وما هي ماهيته ، وما هو سبب وجوده ، وينبهه إلى المهمة التي قدم من أجلها إلى الأرض ليكون دائم الوعي بها والإدراك لها ، إذا غفل عنها تذكر ، وإذا أخطأ عاد ورجع ، وإذا تكاسل تنبه .

---

(١) دكتور عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين النقل والعقل ، ص٥٤ .
(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص ٣١٩ .
(٣) الأستاذ سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ، ص ٢٢٥

وهذا هو فهم النموذج التطبيقي، وهو العهد النبوي، لهذا الجزء من المنهج، فالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه هم رهبان الليل فرسان النهار، لهم دوي بالليل كدوي النحل بالعبادة ولهم هدير بالنهار من العمل، يصلون وهم يقاتلون، ويصومون وهم يزحفون، ويضربون في الأرض وهو قائمون قانتون.

فهم كما يقول عز وجل: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:١١٢).

إذًا فالعبادة فى ضوء أنها الخلافة والمهمة التي وجد الإنسان من أجلها هي تطبيق المنظومة على الإنسان والخلق والكون وتسييرهم بمنهج الله وبمدد من الخط الساخن.

وثانيًا: ننظر للأمر من الجهة الأخرى.

ما معنى خلافة الإنسان في الأرض في ضوء أن الخلافة هي عبادة الله عز وجل؟

إذا كانت عبادة الله عز وجل هي ضبط الإنسان لحياته بكل ما فيها بأوامر الله ومنهجه وإرشاده، فإن معنى أن يكون الإنسان خليفة في الأرض والكون هو أن مهمته هي التعامل مع الأرض والكون والخلق ونفسه معهم بما يوجههم نحو غاية واحدة، هي تسيير الوجود كله وتنظيمه بمنهج الله عز وجل وعلى ما أراده منه حين استخلفه، لأن الله عز وجل ما جعله خليفته في الأرض والكون إلا ليسيِّر الوجود ويتعامل معه بما يريده عز وجل منه.

أي أن خلافة الإنسان في الأرض هي أن يكون قائد الوجود بمنهج خالق الوجود كما يريد خالق الوجود.

هذه هي مهمة الإنسان التي بها وجد ولها خلق، ومن أجلها ترك الملأ الأعلى إلى الأرض، وخروجه عليها أو إخلاله بها إخلال بوجوده وخروج على حدود مهمته وخروج على إرادة المستخلِف التي هو مكلف بإنفاذها.

والخلافة ، إذ هي تسيير الكون والخلق بمنهج الله ، تقتضي منه أن يعرف الكون تمام المعرفة حتى يتمكن من فهم ما أودعه الله عز وجل فيه ليكون مسخراً له ويعينه على أداء مهام الخلافة .

والخلافة تتطلب منه أن يعرف الأرض ، مقر خلافته ، وأن يعمرها وينميها وأن يسير فيها وينظم العلاقة بينه وبينها وبين جميع المخلوقات حسب ما أراد الله عز وجل منه حين استخلفه .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١).

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت:٢٠).

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١).

والخلافة تتطلب منه أن يعرف نفسه وما أودع الله عز وجل فيه من وسائل وإمكانات وطاقات ، منحه إياها حين استخلفه لاستكشاف الكون والأرض والمخلوقات التي سوف يتعامل معها ويسيرها ويقودها وينظم العلاقة بينها تحقيقًا للخلافة .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

نوجز فنقول : الإنسان ترك الملأ الأعلى وأهبط إلى الأرض لأداء مهمة خُلق من أجلها ، هي خلافة الله عز وجل في الأرض ، والخلافة هي العبادة ، والعبادة هي الخلافة ، وهما معًا إنفاذ مراد الله عز وجل وأمره وحكمه فى كونه وخلقه .

ومن أجل القيام بهذه المهمة سخر الله عز وجل كل شيء في الكون ، سماءً وأرضًا ومخلوقات ، بما يعينه على أداء مهمته ، ومنح عز وجل الإنسان نفسه من السلطان والطاقات والقدرات ما يمكنه من أداء هذه المهمة والقيام بتبعاتها .

* * *

آثار التصحيح القرآني لحقيقة الإنسان على الإنسانية

التصحيح الذي أتى به المنهج القرآني لحقيقة الإنسان وماهيته ، وكيفية خلقه وسبب خلقه ووجوده ، وما لابس خلقه وهبوطه إلى الأرض من أحداث ليس في طاقة بشر معرفتها ، لأنه لم يعاينها ولا وسيلة أمامه تكشفها له ولا يمكنه أن يطمح إلى معرفتها يومًا ، لأنها حدثت بعيدًا عن مجال معرفته وخارج قدراته على المعرفة ، هذا التصحيح هو نقلة في تاريخ البشرية لا يوجد ميزان يمكن أن توزن به إلا ميزان الخالق عز وجل .

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

فهذه نقلة في تاريخ البشرية وارتقاء بها لو اجتمع البشر كلهم عليه ما استطاعوا إليه سبيلاً وما قدموا ولا أخروا .

يكفي أن نعرف أن الغرب لكي يكتشف زيف جملة واحدة لُفقت لملء فراغ في التصور لا يعرف حقيقة ما حدث فيه أحد استغرق مئات السنين وآلافها .

مئات السنين وآلافها لكشف التلفيق فقط ، وليس للتصحيح والوصول إلى الحقيقة ، وأنى له أن يصححها أو يهتدي إلى الحقيقة ، فما زال يخبط في عمياء لا يهدى السبيل .

هذا التصحيح هو إذًا إنشاء لإنسان جديد وعالم جديد نسف فيه التصحيح التلفيق والعالم الوهمي الذي أقيم عليه ، وأيضًا كشف تهافت النموذج والمنظومة التي قامت وأنشأت بالثورة على هذا التلفيق والعلم الذي أقيم على هذه الثورة فتكون مشوهًا يتخبط ، لأنه بعد أن اكتشف الإنسان التلفيق أصيب برهاب أو فوبيا تجعله يفزع ويرى في كل معرفة غير العلم الطبيعي الذي كشف به الزيف والتلفيق شبح السجن الذي هدمه والقمقم الذي خرج منه .

الغرب كان مسجونًا قبل خروجه من القمقم ، وخرج منه ، لكنه خرج مريضًا مزمنًا ، مشوه العقل والنفس من طول سجنه .

نتائج هذه الحضارة ، النقلة التصحيحية ، لحقيقة الإنسان وآثارها بالغة المدى ، متعددة الأبعاد ، فهي نسف لعالم وإنشاء لعالم جديد ، وميلاد جديد لمعنى الإنسان ، وصياغة غير مسبوقة للكون ، وتنظيم دقيق متناسق متجانس للإنسان والكون والخلق ، وللعلاقة التي تربطه بهم ، وتربطه وهم معه بالله عز وجل .

هذه النتائج واضحة بنفسها فيما أسلفناه ومبثوثة في ثناياه ، ألمعنا إليها في مواضعها ، إلا أننا نجملها موجزة لنعرف ما هو المعنى الحقيقى للحضارة .

١- الاستقرار العقلي والنفسي للإنسان بمعرفته لأهم سؤال في تاريخه ، المعرفة والتفسير المنطقي المتناسق الذي لا توجد فيه فجوات ولا حشو ، بل هو تفسير نسيج مترابط ، خيوطه آخذ بعضها ببعض في إحكام : من هو ، وكيف خلق ، وأين كان قبل أن يوجد على الأرض ، وما هي مهمته فيها؟ ، وهي الأسئلة التي من غير الإجابة عليها تنتاب الإنسان الحيرة والتمزق والخوف والفزع ، لأنه بدون هذه الإجابة لا بديل أمامه سوى الطلاسم أو العدم .

٢- الإنسان كائن مشرف مكرم خلق خلقًا مستقلاً فريدًا عن باقي المخلوقات ، فهو الكائن الذي خلقه الله عز وجل مباشرة في أحسن تقويم ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وبسجودهم وخضوعهم له سجد وخضع كل من سواهم ، ومن أبى لعنه الله عز وجل وأبلس من رحمته .

وإذًا الإنسان ليس مادة صماء قدمت من العدم وستنتهي بالعدم ، وإذًا الإنسان لم يأت من هوام الأرض ودوابها ، ونفسه تخبره ، حيرة وقلقًا وتوترًا وإن لم يعلم أو يمتلك الدليل ، أنه لا يمكن أن يكون وهو المفكر المدبر العاقل الطُلَعة منتهيًا في أجداده وأصوله إليها .

٣- الإنسان لم يخرج من الجنة إلى الأرض بسبب الخطأ الذي ارتكبه ، لأنه تاب منه ، والله عز وجل قبل توبته وغفر له وهداه إليه ، وإذًا الإنسان ليس مكبلاً منذ مجيئه إلى الدنيا بخطيئة وذنب يثقله وينوء به وهو لم يرتكبه ولا يذكر عنه شيئًا ، وإنما بدأ الإنسان لا يحمل وزرًا ليس له يد فيه ، والله عز وجل لن يحاسبه إلا على ما فعل هو وما جنت يداه هو .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر:٣٨)

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم:٣٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (لقمان:٣٣)

٤- وإذًا لم تكن هناك خطيئة ورثتها البشرية وتورثها ، بل كل امرئ مسؤول عما يفعل وعما تجترح يداه فقط فلا حاجة لفاد يفدي البشرية أو يحمل عنها وزر الخطيئة المزعومة .

٥- المرأة ليست هي سبب خروج الإنسان من الجنة إلى الأرض ، فالرجل والمرأة أكلا من الشجرة معًا ، فلا هي أكلت وحدها ولا هي التي أغوته ليأكل منها ، وفي كل الأحوال فقد تابا معًا أيضًا وأنابا إلى الله .

وإذًا لم تكن المرأة هي سبب الخطيئة الأولى ولا اقترفت ما لُفق وحمل عليها ، فهي ليست كائنًا دنيئًا ولا محتقرًا ، وليست إذا اعتُرف بها كإنسان في مرتبة أدنى من الرجل كما قرر مجمع ماكون سنة ٥٨٦م حين ناقش مسألة : هل المرأة إنسان؟

وإذا لم تكن المرأة دنيئة ولا كائنًا محتقرًا ، فليست هي أيضًا المرأة التي صنعتها الثورة والتمرد على التلفيق ، المرأة التي كانت خطيئتها تلفيقًا ، ثم ثورة وتمردًا على التلفيق جعلوا خطيئتها حقيقة واقعة .

فالمرأة إنسان خلق كالرجل بأمر الله عز وجل ، وخلقا معًا لأداء مهمة وبدء مسيرة على الأرض ، ولكل منهما دور ووظيفة داخل المهمة والمسيرة غير

الآخر ، واختلاف طبيعة الوظيفة والدور اقتضى اختلاف طبيعة كل منهما واختلاف القدرات الممنوحة لكل منهما لكي يناسب المهمة التي خلق ليقوم بها .

وتمرد طرف على طبيعته هو تمرد على المهمة الأصلية نفسها ، ألا وهي الخلافة ، يستوجب كل ما يستوجبه نقض عقد الخلافة .

٦- الإنسان كما هو كائن مشرف مكرم هو أيضًا مكلف بمهمة ، ما جاء الأرض ولا خلق إلا من أجل القيام بها ، فالإنسان على الأرض في مهمة ، وهذه المهمة هي خلافة الله عز وجل في الكون والخلق ، والخلافة تعني التزام الخليفة بإرادة المستخلف ، فليس له أن يخرج عنها .

والخلافة هي العبادة ، والخلافة والعبادة هي تسيير الحياة على منهاج الخالق عز وجل ، وتنظيم علاقاتها وتحديد قواعدها كما يريد عز وجل .

٧- العمل ليس عقوبة ، بل هو الشرف الذي شرف به الإنسان على سائر المخلوقات ، وسعيه في الحياة ومجالدته لشؤونها هو من مهام خلافته وعبادته في الأرض ، وإذا تمكن الإنسان من أن يجعل لعمله في نفسه هذا المعنى فهو رفعة في الدرجة وقربى من خالقه الذي يحب العمل من خليفته ويحب منه إذا عمل عملاً أن يتقنه .

٨- التكليف والمهمة لا يعني الحرج والعنت ، ولا أن حياة الإنسان على الأرض أغلال دائمة تكبله ، وإنما يعني أن هذا التكليف وهذه المهمة هي التي تحقق ماهية الإنسان ووجوده ، فلابد أن يكون دائمًا مدركًا لها واعيًا بها محاولاً تلمس إرادة المستخلِف فى حياته كلها ، وبعد ذلك فسعة من الله ورحمة منه عز وجل بعباده فإنه :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦).

فلكل إنسان طاقة وسعة ، وما يقدر عليه واحد قد يقصر عنه آخر ، والله عز وجل لا يطلب من عباده نصبًا دائمًا ، بل إخلاصًا دائمًا وعملاً بالمهمة كما أراد عز وجل قدر الوسع ، ودون تجاهل متعمد ولا تكاسل معيب .

٩- الإنسان هو الكائن الذي منح بسبب المهمة والتكليف الذي كُلف به سلطانًا على الأرض والكون والخلائق ، لذلك هو محاسب على هذا السلطان ، وهو مسؤول عن صلاحية الكون والأرض ، وعن سلامة مخلوقات الله وحفظها واستخدامها في حدود ما أباح عز وجل له .

وفي إساءة استخدام سلطانه في الطبيعة والبيئة والكون إفساد لها وانتهاك ، هو مسؤول عنه ، وكذلك في حسن استخدامه لهذا السلطان ورعايته لحق المستخلف في كونه وخلقه صلاح هو مجزي عليه ومثاب به .

١٠- البشر جميعًا من أصل واحد ، متساوون في الكرامة ، ولا فضل لأحمر على أسود ولا لأبيض على أصفر ، ولا لقوم على قوم ولا لشعب على شعب إلا بالتقوى وتحقيق إرادة الخالق عز وجل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات:١٣).

* * *

obeikandl.com